لا قـــدر الله . . . !

للروائي الانجليزي أوسبرت سيتويل

لست أعرف بعد كيف ستنتهي هذه القصة ، فإن ماسأقصه عليك إنما حدث صباح أمس ، قبل أن أغادر السفينة في السويس .

جلست على كرسي طويل من القماش ، وإلى جانبي أكداس من الكتب وصحفة حساء فارغة ، أتطاول ببصري إلى الفضاء المكلل بالغمام ، الفضاء الخاوي الذي لم يخفف من وطأته على الصدر سمك يتواثب فيسلي المسافرين . بدا كل شيء دفيئاً رطباً بالغ الرطوبة . وكانت حافة السماء تتدلى منها أعلام مهلهلة من السحب ، وقد ذابت فيها حافة البحر . وكان الرجل الجالس بجواري قد بسط على حجره كتاباً مفتوحاً ، وإلى جانبه أيضاً عدة كتب ، وكان هو الآخر يحملق بنظرة ثابتة إلى المنظر المائي الخاوي . كان البحر يثير روحاً من الكآبة والاغتمام ، لا يساعد على احتمالها إلا ما تبعثه في النفس من الفتور والكسل ، وأنها توجع اليوم في اليوم فتحمل أناساً كثيرين على الاعتقاد بأنهم لا بد قد تمتعوا بالرحلة ما دام الوقت قد مر بهذه السرعة . كان من الواضح أن هذه الروح الكئيبة المغتمة تخيم على وعلى جاري أيضاً . كان جاري طويل القامة نحيفاً دقيق اليدين ، وكان يبدو على خلقته حساسية بالغة الارهاف ، وساءلت نفسي من تراه يكون ... لم تكن الكتب التي بجواره تساعدني على إجابة هذا السؤال ، إذ كانت متنوعة : ترجمة لمجموعة شعر إغريقية ، ورواية عصرية ، وكتاب علمي ، ودراسة لسيرة أحد السياسيين ، ومجموعة من القصص القصيرة الحديثة . ثم لاحظت معها كتاباً من كتبي ، وهو ذلك المسمى « الرجل الذي فقد نفسه » وبغتة حوّل عينيه عن الماء وخاطبني قائلا : « أتحب البحر؟ » . فأجبت : « نعم أنا أحبه ، نوعاً من الحب ، على الرغم من ملاله ، وما يبعث في نفسه الحظ من الرعب . إنني بحار ماهر ، ولكن حين يتمدد الآخرون في فرشهم الخشبية يتمنون لو أنهم يغرقون ، أتمدد أنا على فراشي الخشبي ، مرتدياً جميع ملابسي ، أبتهل إلى الله ألا أغرق ، وأفكر في الخضم الشاسع من المياه الذي يتلاشى فيه رأس الإنسان فلا يكاد يكون شيئاً . ذلك هو السبب في أنني أفضل البحر الأبيض المتوسط ، حيث نكون عادة على مرأى من البر ... لكن يبدو أنه قد اختفى كلية في هذا اليوم ... بل ليتني أبلغ قناة السويس ، فإني أرتقب أن أحظى بوقت ممتع » .

قال : « نعم أنا أعرف هذا الشعور ، فإنه يداخلني أنا أيضاً بعض الشيء . وما دمت أنت كاتباً ، فسأقص عليك قصة عنه ولكن أرجو ألا تكون ممن يؤمنون بالطيرة والفال

ربما لا تستحق هذه القصة أن تسمى قصة في واقع الأمر . هي شاهد أكثر منها قصة ، أو هي برهان على إحدى النظريات ... هذه النظرية ، أو الغزى ، هي تلك النظرية القديمة البديهية التي شغف أحد الروائيين المحدثين بترديدها ، وهي أن ما تشعر به يكون أشد صدقاً ، ولا بد أن يكون دائماً أشد صدقاً ، من مجرد الفكرة التي تدور بخلدك . أو بعبارة أخرى ، اعتمد في حكمك على اللمس ، لا على البصر . ولكن الناس في هذه الأيام تفوزهم الشجاعة التي تجعلهم يعملون كما يشعرون ، فهم يعملون طبقاً للعقل ، ثم يحاولون أن يخترعوا تفسيراً منطقياً فيما بعد ، يفسرون به الأشياء الفذة التي تحدث لهم . لكن لا جدوى من وراء هذا مطلقاً

كانت السفينة مبحرة إلى أمريكا الجنوبية . غادرت تلبري في عصر يوم ممطر من أيام ديسمبر ، ولكن في اليوم التالي كان البحر هادئاً كأنه بركة زرقاء في فصل الصيف . واستمر كذلك ثلاثة أيام ، حتى عندما عبرنا خليج بسكاي . ولكن برغم هدوء البحر تأخرنا عن الوصول إلى لشبونة ، حتى إذا وصلنا إليها أخذ موظفو الميناء يتجادلون جدالا لا ينتهي ، كأنهم عقدوا العزم على أن نتأخر عن الاقلاع من الميناء . وقفت أرقب المسافرين النازلين وأستمع إلى المشاجرة البرتغالية الصاخبة تعلو وتنفتر كأنها صواريخ مبتلة ، بين وكيل السفينة وأحد موظفي الجمرك ... لم يكن بين المسافرين الجدد من يلفت النظر إلا امرأة انكليزية وزوجها . كانت جميلة حقاً ، ولكن جمالها كان من

نوع عجيب ، كأنها إلاهة القدر الاغريقية . كانت عيناها واسعتين ذواتى زرقة عميقة ، يمكن أن تقرأ فيهما معانى كثيرة ، أحدها صادق وكثير منها كاذبة . كانت قسماتها المذعورة الحجرية كأنها تمثال كلاسيكى ، يكمن فيه شىء من المأساة . ثم إنى ظننت أو الأحرى أن أقول أحسست — أن بقسماتها شيئاً من حورية البحر . إذ انتمت عيناها إلى البحر ... كان زوجها إلى جانبها يبدو عادى المظهر . لكن منظرها الفذ كان مقتصراً على محياها ، أما ملابسها فكأنها اختيرت بحيث تمحو الأثر الذى يخلفه جمالها العجيب ، وتحط من سموه وتجعله عادياً مألوفاً .

فى الصباح التالى كنت جالساً على ظهر السفينة ، كما أنا جالس الآن معك ، فوجدتنى مجاوراً لها . وبعد أن عبثنا برهة بكتبنا عبثاً يشابه فى اضطرابه حركة السفن واهتزازها — حقاً إن هناك رابطة قوية بين دوار البحر والكتب المطبوعة — بدأنا نتحدث قليلا . وحين تحدثنا لم يتركا فى النفس أثرا غير عادى ، وكان صوتها هادئاً مليئاً بالاهتمام ثابت النبرات وإن كان فارغاً بعض الشىء ، ولم يكن به أى عنصر غريب من المأساة أو من النبوءة . ولكنى برغم ذلك عرفت ، بل شعرت وأحسست ، بأنها كانت تصلها بتلك العناصر الغريبة صلات وثيقة . تجاذبنا أطراف الحديث ساعتين أو أكثر ، وكان البحر قبل ذلك هادئاً كالبساط ، ولكنه بدأ فى خلال محادثتنا تظهر عليه علائم التغير الأكيدة . وكأنه كان يحاول اختبار قواه ، ليستخدمها فى مناسبة مقبلة . فصفرت فى جنباته رياح هينة ، وأخذت السفينة هزةٌ أثارت المزاح والضحك المعهودين بين الشبان من المسافرين الذين كانوا يتنقلون على ظهر السفينة فى جلبة ، وضاعفت من حماسة اللاعبين فى لعبهم المختلفة ، فازدادوا مرحاً ، حتى يخفون ما شعروا به من بداية التقزز والنشأة ... تسألنى عم كنا نتحدث ؟ ... قد نسيت ، ولكنها كانت أشياء مختلفة ، من السياسة ، والأسفار ، والكتب — الكتب البريئة المملة .

ولكن كلما مرت دقيقة ازداد التحدث صعوبة ، إذ ارتفعت بين آونة وأخرى أصوات الأشياء المتصادمة ، وازدادت الريح دوياً ، وإن كان الركن الذى انتحيناه محمياً هادئاً بعض الشىء ... أخبرتنى أنهما كانا ذاهبين إلى بونس أيرس ، حيث يمكثان أسبوعاً ، ثم يعودان إلى وطنهما مباشرة . فإن المستر روفنى — وهذا اسم زوجها — كان مريضاً ، وقد نصحه الطبيب بالقيام بهذه الرحلة البحرية . وقال الزوج : « لقد حاولت أن أثنى زوجتى عن المجىء ، ولكنها ألحت . أنا لم أعرك بالمجىء يا حبيبتى ، أليس كذلك ؟ لقد بذلت كل جهدى لمنعك » .

كلا ، لست أستطيع أن أتذكر كل المحادثة بجلاء ، وإنما أتذكر شيئاً أو شيئين من هذا القبيل . أتذكر المسز روفنى تقول ، بصوتها الحازم الذى لا يقبل أى سخف أو عبث ، والذى كان مع ذلك فارغاً بدرجة عجيبة ، ذلك الصوت الذى نطق بالأشياء كأنه لا يعنيها — أتذكرها تقول : « مهما يكن من شىء . فأنا مؤمنة بالقضاء والقدر . أنت لن تستطيع النجاة مما سيحدث لك فهذا هذا ، وما عليك إلا أن تتقبله بأحسن ما فى استطاعتك . لن يستطيع ثعلب أن ينجو إلى الأبد ، إذا كانت كلاب الصيد تطارده » ... أنا أتذكر ذلك جيداً ، فإن هذه الملاحظة ، برغم أنها شىء معهود طالما سمعناه على الرغم منا ، ضايقتنى إذ ذاك أشد مضايقة ، حتى كدت لا أكتم سخطى ؛ إذ وجدتها لا تنسجم مع ذلك الجمال العجيب ، أو ذلك الوجه الذى كان يبدو مترفعاً لأحد الانفعالات العاطفية العظمى — وكنت واثقاً أن هذا الانفعال هو الخوف — فما يجىء هذا الانفعال حتى يصير ذلك الوجه آية رائعة من التعبير ... ولكن ما أكثر ما ينطق الناس فى هذا المجال بأفكار تخيب ظن المرء إذ لا يجدها تنسجم معهم ... ثم إنها استرسلت تتحدث عن الأسواق فى مقاطعات انكاترة ، وأسلمت نفسها إلى نوبات طفيفة من الاعتداد بالذات لم تنسجم معها أيضاً .

ولكنى ساءلت نفسى فى ذلك الوقت : أكانت تلك حقاً نوبات من الاعتداد بالنفس ؟ لقد شعرت بأنها أدخلتها فى الحديث لا لتحدث وقعاً على نفسى بل لتدخل الراحة والاطمئنان على نفسها هى . فإن مثل هذا الاعتداد بالنفس يرتبط بالحياة اليومية ، والحياة اليومية هى عادة خالية من البطولة والبسالة ومن النكبات والمآسى ، كما أن الأفكار التى عبرت هى عنها كانت أفكار الحياة اليومية العادية . وقد تشبثت هى بهذه الأفكار لأنها

كانت تتوق أشد توق إلى أن تقنع نفسها بأن حياتها ليست فى حقيقتها إلا من ذلك النوع العادى ، وأنه ليس من وجود فعلى لتلك النكبة العظيمة والمأساة القديمة التى ترتبط بها والتى هربت منها . فكل فكرة عبرت عنها ، وكل مناسبة أشارت إليها ، كانت كأنها تقرص نفسها لتتأكد من أنها ساحية ومن أن الكابوس المخيف قد زال ...

ازداد الطقس اضطراباً ، ولم أرها بعد ذلك فى ذلك اليوم . فقد تضاعفت حدة الزوبعة فلم يعد أحد ليجد متعة فى الرحلة البحرية . بل لم يعد من المستطاع أن ينام المرء ، وإن كانت الزوابع فى العادة تجعلنى أستغرق فى النوم . فإن طرق عينك السبات لحظة واحدة فى الليل فلا بد أن يوقظك فى الحال صوت الأبواب تنفتح وتنصفق وتتصادم ، أو يوقظك إحساس عجيب بأن الروح نفسها ، تلك الذات النفسانية التى بنى حولها الجسد ، قد تنقلت من مقرها بعض الشىء ... يسائل المسافرون أنفسهم ، كعادتهم فى خلال رحلة بحرية : « لم قمت بهذه الرحلة ؟ » ولكنى لم أشعر إلا بشعور واحد ، شعور طالما أحسست به فى المحيط الأطلنطى ، وإن كنت قد قمت فيه برحلات كثيرة لم يكن عنها من محيد ، ذلك الشعور هو الرعب . لم يغلبنى دوار البحر ، وإنما شعرت بالرعب من تلك الأودية الباردة فى أعماق المياه تحت سطح البحر ، تلك الأودية اللانهائية المتموجة التى أخبرنا بأنها فى عمقها تماثل جبال البر فى علوها ... وبهذه المناسبة (سامحنى لقطعى حبل قصتى) ألم يزدد الطقس اضطراباً منذ بدأنا حديثنا ، أم ليس هذا إلا وهما من أوهام مخيلتى ؟ »

فاضطررت إلى أن أعترف بأن الطقس قد تغير ؛ فقد بدأت السفينة ترنح بصورة غير منتظرة .

« لقد ظننت كذلك » قال ذلك وتوقف برهة ، ثم استرسل : « على أية حال ستكون القناة هادئة ... ولكن لأستمر فى قصتى : من حسن الحظ أننى كنت سأغادر السفينة فى مادیرا ، ولم يكن دونها إلا رحلة يومين . ولكن كم تشوقت إليها فى ذينك اليومين ، تلك الدرة البديعة المستقرة فى وسط المحيط تحت غطاء سحاب الأطلنطى !

كان اليوم التالى سيئاً للغاية ، بحيث لم يعد المرء يهتم بشىء ما لا بالطعام ولا بالشراب ولا بالنوم ولا بالمسافرين : ولكنى لاحظت مع ذلك أن المستر روفى جلس إلى طعام الغداء وحيداً ... وفى الصباح التالى بدا كأن الزوبعة قد هدأت قليلا ، وفى أثناء تجوالى على ظهر السفينة قابلته .

صحت بحماسة كاذبة : « صباح الخير ... ! كيف أنت فى هذا الصباح ... يؤسفنى أن أراك وحيداً » .

فأجاب : « نعم إنه شىء مقلق . كم تمنيت أن يكون الطقس لطيفاً ... فإننا نقترب من مادیرا الآن ، وينبغى ألا يكون الطقس هكذا ... إننى أسارحك بأنه يزعجنى ... ليس ذلك لأن زوجتى غير متعودة على الأسفار البحرية — فإنها الآن لا تشعر بالدوار — بل الحق أن الرعب يتملكها فى أى سفينة ! »

قلت : « ليس هذا شيئاً عجيباً ، فأنا أيضاً مرتعب ... وأعتقد أن كثيرين جداً من الناس هم أيضاً كذلك ، لو أنهم اعترفوا بالحقيقة ! »

أجاب : « قد يكون هذا صحيحاً ... ولكن الأمر مختلف بالنسبة إليها فإن آخر رحلة بحرية قامت بها كانت فى (التيتانيك) وقد غرق أخوها التوأم مع تلك السفينة ، ولم تنج هى إلا بمعجزة ... ولسنين عديدة رفضت أن تركب سطح سفينة على الاطلاق ، بل إنها أبت أن تقوم برحلة القناة الانكليزية التى لا تستغرق إلا ساعة واحدة ، مع أنها قبل ذلك كانت مغرمة بباريس ... وسأذكر لك شيئاً غريباً : قد يكون البحر هادئاً بالغ الهدوء ، ولكن ما تكاد تضع قدمها على سطح السفينة حتى تبدأ الزوبعة ، بداية لا شك فيها . لقد شاهدت ذلك يحدث فى القناة الانكليزية عشرات المرات ، حتى إننى كثيراً ما تمنيت أنى لم أحملها على تغيير عزمها والمجىء معى ، حتى لتلك المسافة القصيرة ... ما كان ينبغى أبداً أن أسمح لها بالمجىء فى هذه الرحلة ... كان ينبغى أن أحظر ذلك حظراً باتاً ، من البداية ... ولكنها كانت قلقة البال علىّ — فقد كنت مريضاً زمناً طويلا ، وأولئك الأطباء اللاعين قالوا إن رحلة بحرية طويلة هى الشىء الوحيد الذى يرد إلىّ العافية — فألحت هى وأصرت . ولم أستطع منعها ، فقد بدا كما لو كان من المحتم أن تجىء ، وإن ارتاعت هى من ذلك ، لو كنت تفهم ما أعنى ... »

وإذن فهذا هو السر! لا غرابة إذن أن تكون مرتاعة، حتى على أشد المياه خمولة. تذكرت تلك السفينة الفاخرة فى رحلتها البكر، وتذكرت اليدين اللاعبتين، والاصطدام المفاجئ الرهيب، والسكون الشامل، حين وصلتها رياح التدمير، ثم تذكرت الاضطراب والفوضى فى الماء، والتلاق الغريب الصامت فى الدروب العميقة الخضراء بين الأمواج، حيث ترخ القادرون على السباحة إلى أعلى وإلى أسفل، أو اصطدموا الواحد بالآخر كأنهم سمادات الفلين، ولكن لم يستطيعوا تخاطباً، إذ كانت أصواتهم قد ضاعت تحت سوت المحيط، فبدوا وكأن بعضهم لبعض عدو ... إذن فهذا هو السر ... ! هذا هو معنى تينك العينين الواسعتين، كميتى تمثال فى ضياء الشمس الباهر، ذلك هو المعنى المختفى تحت كلماتها العارضة، السخيفة الجادة معاً: « لن يستطيع ثعلب أن ينجو إلى الأبد، إذا كانت كلاب الصيد تطارده ». كلا، ولا الإنسان يستطيع النجاة، إذا كانت قطعان الشر والهلاك تصاحب مجيئه وذهابه.

فى عصر ذلك اليوم وصلنا ماديرا. فودعت المستر روفنى وزوجته. وعلى رغم أنهما كانا مشغولين مع أهل الجزيرة الذين هاجموها يريدون أن يبيعوا لها ما يحملون من الأقمشة المطرزة والزهور والنعال والصناديق المصنوعة من خشب النخل، ونماذج العربات التى تجرها الثيران، وملابس سكان الجزيرة — فإنهما لوحا لى بأيديهما إذ غادرت السفينة فى زورق إلى البر. ولاحظت مرة أخرى خلو وجهها من التعبير خلوا عجيباً، وذلك شىء إن أنعمت النظر فيه تجلى لك رعب أشد من الرعب. ثم ظننت أنها نظرت إلى البر نظرة المتلهف المشتاق، ولكنى كنت أبعد من أن أرى بوضوح ... مهما يكن من الأمر فإنهما الآن سالمان، فإن بقية الرحلة، خصوصاً فى هذا الوقت من السنة، هادئة فى المنطقة الحارة، تتجلى فيها الحدائق العميقة الزرقاء المتألقة تحت المياه، وتقفز الأسماك الطائرة فوقهما كما تثب العصافير فوق أرض البستان.

مضى أسبوعان، قبل أن أقرأ فى صحيفة هذا الخبر: « إعصار فى المحيط الأطلنطى الجنوبى. أمواج المد تطغى على المدن الساحلية. باخرة بريطانية تغرق على مقربة من (ريك). غرق جميع المسافرين ». وفى الحال تذكرت المستر روفنى ... إذن قد انتهى الأمر الآن ... إنها كانت تنتمى إلى البحر بكيفية ما ... ولا بد أن يستردها البحر إلى أحضانه. لقد كانت تعرف ذلك دائماً، وإن لم يستطع عقلها تصديق ذلك أحياناً. مهما يكن من شىء، فقد انتهى الأمر، كائناً ما كان مغزاه. انتهى طراد طويل، لا يستطيع المرء أن يتعرف على بدايته، أو لعله ليس إلا الفصل الأوسط فى درامة تستغرق عدة قرون، أو عدة أحقاب ... ساءلت نفسى: ترى كيف كانت هيئة ذلك الوجه الجميل فى النهاية، وإلى أى حد جعلت سوتها هادئاً عملياً وهى تحدث زوجها للمرة الأخيرة، عارفة ما يخبئ لها القدر ... ولكن الواقع كثيراً ما يختلف عن النبوءة، وهذا ما حدث فى هذه الآونة ... فإننى عاودت قراءة الصحيفة، فقرأت فى أخبار آخر ساعة: « إنقاذ أحد المسافرين. اتفاق غريب ... المستر روفنى التى أنقذت عصر أمس فى حالة إنهاك، يتحقق أنها أحد الذين نجوا من التيتانيك، حين غرق أخوها التوأم مع تلك السفينة. ويخشى أن المستر روفنى، المشهور فى عالم الرياضة، وجميع المسافرين الآخرين والبحارة، قد غرقوا » ... إذن فالبحر لم يستردها بعد، والثعلب قد نجا مرة أخرى، يا للمسكينة! لم يتم الفصل الأخير بعد.

لعلك تعتقد أننى من المؤمنين بالخرافات إذ أشعر بما أشعر الآن؟ ولكن الحياة تبدو أقرب إلى الفهم حين يؤمن المرء بالخرافات ... على أية حال، قد حدث ذلك منذ ثلاث عشرة سنة ... وأستعيذ بالله، إنها فوق هذه السفينة، مسافرة إلى سيلان لترى ابنها. لقد تحدثت إليها هذا الصباح، هى كأنها لم تكبر يوماً واحداً. ولكن ماذا ينبغى أن يفعل المرء: أيجيب غريزة الإيمان بالخرافات أم يتحداها؟ ... إننى أجبن من أن أرتكب سخف مغادرة هذه السفينة فى السويس ».

توقف عن الحديث، واستغرق فى الصمت والتفكير — ولكننى جاهدت حتى نزلت إلى قاع السفينة، متشبثاً بكل ما وقعت عليه يدى حتى لا أفقد توازنى، وهناك أرسلت رسالة برقية.

[عن مجلة الأدب والفن الانجليزية] أوسبرت سيتويل

أقصـــــدوا متحف فؤاد الأول

لسكك حديد وتلغرافات وتليفونات الحكومة المصرية

أمام مخزن بضائع محطة مصر

لتشاهدوا تطورات وسائل النقل البرية والبحـــرية والجوية فى مختلف الأزمان ولتروا أكبر وأدق مجموعـــة من النماذج والخرائط والصور المضاءة لتاريخ النقـــل فى مصر والخارج

المتحف مفتوح للزيارة كل أيام الأسبوع ما عدا أيام الاثنين والعطلات الرسمية كما يأتى : —

فصل الشتاء — من أول نوفمبر إلى آخر إبريل	فصل الصيف — من أول مايو إلى آخر أكتوبر
من الساعة ٣٠ ٨ إلى الساعة ٠٠ ١٤	من الساعة ٠٠ ٨ إلى الساعة ٣٠ ١٣
رسم الدخول ٢٠ مليما	تليفون رقم : ٤١٩٦٤

[طبعت بدار الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين]